# مسلسل «ليلة السقوط» والتزوير التاريخي

عبدالخالق فاروق
كاتب ومحلل سياسي

أصبح من المستقر في علم الإعلام وعلم الاجتماع السياسي تأثير الصورة المقدمة، عبر وسائل الإعلام عموماً، وفي الأعمال الدرامية والأفلام السينمائية خصوصاً، في فكر قطاع واسع من المشاهدين وعقلهم ووجدانهم، وخصوصاً لدى الشباب حديثي التجربة الذين يعتمدون في أحيان كثيرة على ما تقدمه هذه الوسائل من مضامين تاريخية أو ثقافية.

وتحفل الدراسات الإعلامية والسياسية الحديثة بالكثير من العرض والنقد لمضامين هذه الأعمال الدرامية والسينمائية، وخصوصاً حين تهدف إلى تقديم صورة نمطية معادية لقوميات معينة أو فئات دينية أو مذاهب محددة.

وتمتلئ سجلات السينما الأميركية الهوليوودية بمئات الأفلام والأعمال التي تسيء إلى العرب والمسلمين. وعلى النقيض من ذلك، فإنها تمتلئ بمئات الأفلام التي تمجّد ذكاء اليهود وعبقرية الإسرائيليين والصهاينة.

هذه النظرة السلبية إلى العرب بدأت مبكراً جداً، حتى قبل الهجوم الانتحاري الذي قام به أعضاء تنظيم "القاعدة" على المباني الأميركية في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. لنأخذ مثلاً على ذلك الفيلم الأميركي "العرب" (١٩١٥)، وفيلم "الشيخ" (١٩٢١)، وكذلك أفلام مثل "ليالٍ عربية" (١٩٤٢)، و"الحصار" (١٩٩٨)، و"المومياء" (١٩٩٩)، و"الاشتباك" (٢٠٠٠).

وقد زادت وتيرة إنتاج الأفلام الأميركية المشوّهة للصورة العربية والإسلامية والمصرية بعد أحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، فأنتجت عشرات الأفلام، منها "هيدجو" (٢٠٠٤)، و"رحلة من فينكس" (٢٠٠٤)، و"المتحولون" (٢٠٠٧)، و"سيريانا" (٢٠٠٥) الذي أدى دور بطولته الممثل الشهير جورج كلوني، و"واجب وطني" (٢٠٠٦).

أما فيلم "أرض الميعاد" للمخرج الإسرائيلي عاموس غيتاي، فقد احتفت به مهرجانات السينما الأوروبية، ومُنح جائزة مهرجان فينيسيا عام ٢٠٠٤؛ أهم مهرجان أوروبي للسينما، ونال المخرج الهولندي ثيو فان جوخ عام ٢٠٠٥ جائزة أفضل مخرج في مهرجان "روتردام" عن فيلم "كوول"...

وقد قام البروفيسور الأميركي ذو الأصول العربية جاك شاهين، الذي توفي عام ٢٠١٧، بإعداد دراسة هائلة وشاملة لأكثر من ٩٠٠ فيلم أميركي تحت عنوان "عرب السينما الأميركية"، حلّل فيه كيفية تقديم السينما الأميركية - والغربية عموماً – العرب إرهابيين وهمجاً متخلفين ومولعين بالنساء وعبدة للمال...

وقد رسخت مئات الأفلام الأميركية والأوروبية مفهومين رئيسيين:

الأول: "تنميط" صورة العربي والمسلم كإرهابي، أو رجل جشع ومحب للملذات والمال، أو عاشق للنساء، أو متخلف عن الحضارة الحديثة وهمجي.

الثاني: "تزوير" التاريخ والوقائع بصورة فجة ووقحة وجريئة.

صحيح أنّ هناك أعمالاً فنية أخرى قدمت العرب بصورة مختلفة وإيجابية إلى حد ما، إلا أنها قليلة العدد، ولم تترك في مخيلة المشاهدين الأميركيين وغير الأميركيين ما يقابل الأثر السلبي للموجة الطاغية للصورة النمطية السلبية للعرب والمسلمين، ومنها على سبيل المثال أفلام مثل "المحارب الثالث عشر" (١٩٩٩)، و"مملكة الجنة" للمخرج ريدلي سكوت، و"روبن هود" (١٩٩١)، و"بيروت"...

وفي السينما العربية – وخصوصاً المصرية – نجد بعض تلك النماذج النمطية لأجناس معينة وفئات محددة، كما هي حال المواطنين السودانيين أو السود بأدوارهم الثابتة كخدم في المنازل وبوابين للعقارات، وإن كان ذلك قد تم من دون وعي ومن دون قصد.

وتحفل الأعمال الدرامية العربية والمصرية في مواسم شهر رمضان بنماذج من هذا التنميط الضار؛ فخلال السنوات العشر الأخيرة، حفلت الأعمال الدرامية التلفزيونية المصرية بعشرات المسلسلات التي تمجد ضباط الشرطة والجيش، في مقابل تقديم صورة بشعة للشخص المتدين (أو الشخص الإرهابي) من منظور المخرج والمنتج وكاتب السيناريو، وخصوصاً بعدما سيطرت أجهزة الأمن المصرية على شركات الإنتاج التلفزيوني وشركات الدعاية والإعلام، ومارست في سبيل ذلك كل أشكال الضغوط المقبولة وغير المقبولة لشراء القنوات الفضائية التي كان يمتلكها رجال مال وأعمال مصريون وعرب.

**وقع مسلسل «ليلة السقوط» في واحدة من أكبر الأخطاء التي مارسها جميع من شاركوا في هذا العمل منذ اللحظة الأولى، وهي «تزوير التاريخ»**

على أي حال، تابعت خلال شهر رمضان الكريم -طوال ٣٠ يوماً- مسلسل "ليلة السقوط" من تأليف مجدي صابر، ومن إنتاج شركة عراقية ومنتج يسمى قيس الرضواني، ومن إخراج ناجي طعمي. ومن المؤكد أن هذه الشركة كردية تابعة للحزب الديمقراطي بقيادة السيد مسعود برزاني.

وقد حفل المسلسل بعشرات الممثلين البارعين، من بينهم الممثلان المصريان طارق لطفي (في دور عبد الله الدباح؛ ذلك الداعشي المتعطش إلى الدم) وأحمد صيام (في دور القاضي الداعشي أبو الوليد)، والممثل السوري باسم ياخور، والفنانة الأردنية صبا مبارك، والممثلة السورية كندة حنا، والممثلة العراقية كادي القيسي، وآخرون.

يدور المسلسل حول الفترة السوداء التي شهدها العراق بعد احتلال التنظيم الإرهابي "داعش" نحو نصف أراضيه، والزحف إلى الموصل واحتلالها، وما كابده الشعب العراقي البطل (من تنكيل وقتل وتعذيب وسَبْي للنساء) على يد هذه الجماعة الوحشية التي لم يرَ التاريخ الإنساني مثيلاً لها.

ورغم الإنفاق المالي الباذخ على إنتاج هذا العمل، والأداء الممتاز للممثلين، والكفاءة الفنية لطاقم التصوير واختيار المواقع، والخبرة الممتازة في إدارة الحوار، والحشد الهائل من الممثلين الذين يتحدر معظمهم من كردستان العراق، فإنّ هذا المسلسل وقع في واحدة من أكبر الأخطاء التي مارسها جميع من شاركوا فيه منذ اللحظة الأولى، وهي "تزوير التاريخ" والتلاعب بالحقائق والوقائع الحقيقية التي ما زلنا شهوداً عليها وحاضرين لوقائعها.

المسلسل - من أوله إلى آخره - يشيد بالبشمركة العراقية، ويرفع أعلامها في كل لقطة، لتنافس الأعلام السوداء لـ"داعش". ومن دون مواربة، يتردد اسم الزعيم مسعود برزاني باعتباره قائد هذه الملحمة التحريرية ضد التنظيم، من دون أن يرمش جفن واحد، ولو للحظة واحدة، للمؤلف وكاتب السيناريو والممثلين والمخرج.

هكذا، سقطت الحقيقة التاريخية الناصعة والواضحة والمعلنة لكلّ العالم، وهي دور شباب "الحشد الشعبي" في تحرير العراق والموصل وبقية الأراضي العراقية من هذا الكابوس، وسقط عمداً دور فرقة مكافحة الإرهاب بالتعاون مع فرق من الجيش العراقي حتى الحلقة الثلاثين والأخيرة من هذا المسلسل، حين ظهر دور فرقة مكافحة الإرهاب وفرق الجيش العراقي.

وهكذا، ونحن ما زلنا شهوداً أحياء، لم يرد ذكر الشهيد الجنرال قاسم سليماني؛ ذلك الرجل الذي كانت أربيل ذاتها، التي يسكنها ويقيم فيها إماراته السيد مسعود برزاني، ستسقط في يد "داعش" لولاه، كما قال مستنجداً بالشهيد الجنرال وزملائه من طابور الشهداء الإيرانيين الذين أدوا دوراً هائلاً في تحرير العراق من هذا الكابوس. ولم يأتِ أيضاً ذكر رجل من أبطال هذه الملحمة الوطنية هو الشهيد أبو مهدي المهندس.

إنَّ دور البشمركة العراقية كان الأقل تأثيراً في هذه الملحمة البطولية، ويشهد آلاف الأيزيديين - الذين تمكنوا من الفرار من سكاكين "داعش" في سنجار عام ٢٠١٤ - على الدور السلبي الذي أدته البيشمركة في شمال العراق، وخصوصاً التابعين لحزب مسعود برزاني، إذ انسحبوا أمام هجوم "داعش" الكاسح، وهربوا تاركين الأيزيديين المسالمين غير المسلحين يلقون واحدة من أبشع جرائم التطهير العرقي والديني في التاريخ العراقي الحديث.

هكذا، تحوّلت الحقيقة من خلال عمل درامي - مدفوع الأجر ومدسوس الغرض والأهداف - إلى واحدة من أكبر الخدع البصرية، بما يذكرنا بما سبق أن صرح به وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد - أثناء غزو العراق وتدميره - بأن المعركة بعد غزو العراق واحتلاله هي معركة العقل والوجدان و"الصورة".

من هنا، كان حرص الإدارة الأميركية على إنشاء قنوات إعلامية ناطقة بالعربية، وعلى تمويل قنوات عربية ولبنانية وصحافيين في كل مكان، من أجل التأثير بالصورة والكلمة في وعي الشعوب العربية وتضليلهم عن حقيقة الأهداف الأميركية.

وهنا، نجد تماثلاً يكاد يكون كاملاً بين هذا الجهد الأميركي وهذا المسلسل العراقي (الكردي بالتحديد). وإذا رغبنا في التحديد أكثر، فهو مسلسل ناطق باسم السيد مسعود برزاني وحزبه الديمقراطي الكردستاني.

وإذا كان الحدث العراقي الحقيقي ما زال حاضراً (وطازجاً) في مرمى بصرنا وحياتنا، وإذا كنا قد عايشناه لحظة بلحظة، فيما يجري تزويره بكل هذه الوقاحة، فما بالنا بما ستراه وتشاهده الأجيال المقبلة بعد ١٠ أعوام أو ٢٠ عاماً، وستتصور أنه ما جرى فعلاً!

# العراق والمقاومة الفلسطينية.. وحدة الأهداف والمسارات

عادل الجبوري
كاتب ومحلل سياسي

ربما كانت زيارة الأمين العام لحركة "الجهاد الاسلامي" الفلسطينية زياد النخالة للعراق في الثاني عشر من شهر نيسان-ابريل الجاري، مفاجئة وخارج دائرة التوقعات والقراءات السياسية لمجمل مسارات الحراك الاقليمي المتعدد الاتجاهات. وربما كانت أيضًا خارج قائمة الأولويات الموضوعة من قبل مراكز ومصادر تحريك المياه الراكدة، وحلحلة العقد الشائكة، وتذويب كتل الجليد الصلدة بين عدد من فرقاء وخصوم المنطقة.

وقد يرى البعض في زيارة النخالة على رأس وفد رفيع المستوى من حركة "الجهاد الاسلامي" لبغداد، وكذلك زيارة وفد مماثل من حركة المقاومة الاسلامية "حماس" للمملكة العربية السعودية، بأنها تحولات تنطوي على قدر كبير من الأهمية، وهي تعد حلقة أساسية من حلقات اعادة ترتيب أوراق المنطقة وتطويق أزماتها، وهي بالفعل كذلك. فلا يمكن بأي حال من الأحوال، فصل الحراك السياسي الفلسطيني نحو بغداد والرياض، أيًا كانت محركاته، عن خطوات التقارب الايراني-السعودي، والتقارب السوري-السعودي، وجهود حلحلة الأزمة اليمنية، والخطوات الواضحة لاستعادة العراق دوره المطلوب ومكانته المفترضة في خارطة المشهد الاقليمي العام، ولا يمكن فصله أيضًا عن وقائع وأحداث الميدان الفلسطيني، رغم أن المواجهات مع الكيان الصهيوني ليست بالأمر الجديد.

ولعل هناك جملة ملاحظات بخصوص زيارة النخالة الى العراق، من المهم جدًا الاشارة اليها حتى تكون صورة الحدث متكاملة وواضحة من مختلف جوانبها وأبعادها.

الملاحظة الأولى: أنها تعد الزيارة العلنية الأولى من نوعها منذ الاطاحة بنظام صدام في ربيع عام ٢٠٠٣ لسياسي فلسطيني يمتلك موقعًا قياديًا متقدمًا في إحدى أبرز فصائل المقاومة الفلسطينية.

الملاحظة الثانية: أن زيارة النخالة تمت بدعوة من جهات سياسية لها وجود ودور قوي في ادارة شؤون البلاد، وهي ليست ببعيدة عن فضاءات محور المقاومة، فضلا عن أنها تزامنت مع مراسم احياء يوم القدس العالمي، الذي صادف في الجمعة الاخيرة من شهر رمضان المبارك من كل عام، كما حدده الامام الخميني (قدس سره) قبل اربعة واربعين عاما، ويعد

التظاهرة والفعالية العالمية الاوسع والاشمل لابراز الدعم والاسناد السياسي والاعلامي والشعبي للقضية الفلسطينية.

ورغم أن وفد حركة "الجهاد الاسلامي" لم يأت بناء على دعوة رسمية من رئاسة جمهورية العراق أو الحكومة أو وزارة الخارجية، إلا أن الحفاوة والاهتمام الذي حظي به من قبل كل الجهات العراقية العليا كان لافتًا للغاية.

ولم يكن ذلك التزامن مصادفة، بل انه كان محسوبا ومخططا له. وقد أريد من ورائه أن تنطلق رسائل المقاومة الفلسطينية في يوم القدس العالمي هذه المرة من بغداد وليس من أي عاصمة أخرى. وهذه الرسائل مفادها فشل كل المخططات والمشاريع الرامية إلى جر العراق ووضعه على سكة التطبيع مع الكيان الصهيوني، وأكثر من ذلك، إن هذا البلد يعد حجر الزاوية في المواجهة الدائرة مع ذلك الكيان ومن يدعمه ويسانده من القوى الدولية الكبرى والقوى الاقليمية التابعة والخاضعة والمنقادة لها.

لا شك أنه لم تظهر طيلة العقدين الماضيين اية مؤشرات واضحة وملموسة على أن العراق ذاهب الى مسار التطبيع مع "تل ابيب" كما فعلت أطراف عربية قبل عقود، مثل مصر والاردن، أو قبل أعوام قلائل، مثل الامارات والبحرين والسودان وعمان. ورغم خضوعه للاحتلال الاميركي، واغراقه بكمّ هائل من المشاكل والازمات السياسية والامنية والاقتصادية والمجتمعية، ونجاح "اسرائيل" في تحقيق بعض الاختراقات فيه من هنا وهناك، الا أن العراق بالاطار العام بقي محصنًا وعصيًا على الاذعان والاستسلام لما تريده واشنطن و"تل ابيب" وعواصم غربية وعربية اخرى.

وقد بات واضحًا أن العراق يقف في الجانب الرافض للكيان الصهيوني والمساند للقضية الفلسطينية، وأنه أخذ يغادر شيئًا فشيئًا تبعات وتداعيات وارهاصات مرحلة الاحتلال الأميركي ويستعيد عناصر قوته ومكانته في محيطه الاقليمي وعموم الفضاء الدولي، بعد فشل كل الرهانات لاعادة عجلة الزمن الى الوراء، وأنه متجه إلى تبني سياسات عقلانية معتدلة لا وجود فيها لمنهج الحروب والصراعات والمؤامرات العبثية.

في ذات الوقت، بات واضحًا أن حركات وفصائل المقاومة الفلسطينية أخذت تفهم وتتفهم بدرجة أكبر الواقعيات السياسية الحاكمة في عالم اليوم، وظروف المنطقة والتحديات التي تواجه دولها وشعوبها، وكيفية استثمار العوامل المتاحة من أجل ديمومة نضالها ضد الكيان الصهيوني للوصول إلى الأهداف المطلوبة والمرجوة. وأصبحت تلك الحركات والفصائل على قناعة تامة أو شبه تامة بأن استمرار التقوقع في المساحات المذهبية والطائفية الضيقة لا يجدي نفعًا في قبال الفضاء الواسع للمصالح والتحديات والتهديدات المشتركة مع المساحات المذهبية والطائفية الأخرى، ويكفي دليلًا على ذلك، أن الجمهورية الاسلامية الايرانية ومعها حزب الله اللبناني، والقوى السياسية العراقية في اطار محور المقاومة والحشد الشعبي، تعد اليوم الأكثر دعمًا ومساندة من الناحية الفعلية الواقعية -بعيدا عن الشعارات الفضفاضة والمواقف الازدواجية المنافقة- للقضية الفلسطينية.

في واقع الامر، ومن أي زاوية نظرنا لزيارة النخالة لبغداد، فهي تمثل نقطة تحول بين مرحلتين في العلاقة بين العراق والمقاومة الفلسطينية. مرحلة سوء الفهم وخطأ القراءات، ومرحلة البحث عن نقاط الالتقاء وتفهم الواقعيات وتقدير حجم وطبيعة المخاطر والتحديات. وهنا تكمن الملاحظة الثالثة، المتمثلة في أن الزيارة جاءت وكأنها جزء من عملية ترتيب مجمل أوراق الملفات الاقليمية المتداخلة فيما بينها، والتي أضحى العراق طرفًا محوريًا وفاعلًا فيها بعد أن اضطلع بدور حيوي مهم في المصالحات الاقليمية وحلحلة العقد القائمة بين أكثر الفرقاء خصومة وعداء، فضلًا عن وجود المقاومة الفلسطينية كرقم صعب ومؤثر في معادلات الصراع ما دام الكيان الصهيوني يشكل الخطر الأكبر، وما دامت المواجهة معه تعد في مقدمة الاولويات وصدارة الاهتمامات.